

من أخبار المسافرين (٣٤) ابن وهب يسافر للحج ماشياً

كان سعيد بن وهب شاعراً ماجناً كثير القول في الغزل والخمر، وكان يسكن بالبصرة، ثم توطن ببغداد وتاب وتعبّد وندم على ما كان منه، ثم أزمع السفر إلى مكة المكرمة للحج ماشياً على قدميه فبلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً وتعب من ذلك فأنشأ يقول:

قَدَمِيَّ اغْتَوِرَا رَمْلَ الْكَثِيبِ	وَاطْرُقَا الْأَجْنَ مِنْ مَاءِ الْقَلْبِ
رَبِّ يَوْمِ رُخْتَمَا فِيهِ عَلَى	زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَفِي وَادِ خَصِيبِ
وَسَمَاعِ حَسَنِ مِنْ حَسَنِ	صَخْبِ الْمَزْهَرِ كَالظُّبْيِ الرَّيْبِ
فَاحْسُبَا ذَاكَ بِهَذَا وَاضْبِرَا	وَخُذَا مِنْ كُلِّ فَنٍ بِنَصِيبِ
إِنَّمَا أَمْشِي لِأَنِّي مَذْنُبٌ	فَلَعَلَّ اللَّهَ يَعْفُو عَن ذُنُوبِي

* * *

مهاجر من هجر

أحد الشعراء بل العلماء الذين كُثرت أسفارهم، وتعددت رحلاتهم، حياته عجيبة، أخباره غريبة، شعره رائع، بيانه مائع، إذا وعظ هز القلوب، وأمتع النفوس، وألهب الضمائر، وإذا تغنى بالشعر أطرب النفوس، وأمتع العقول، وهَوَّجت الجمال، وتجلَّى الجمال، وإذا تغزل قلت هذا عاشقٌ متولِّه، ومُحِبٌّ مقيم، لكنه غزله شريف، وشعره عفيف، وقلبه نظيف.

ذلك هو الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن عبداللطيف آل مبارك من بني تميم، ولد بمدينة الهفوف «الأحساء» عام ١٢٧٩هـ، وهي المعروفة في التاريخ بـ«هَجَرَ».

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم توجه إلى مكة وأقام بها عدة سنوات تلقى خلالها حظاً طيباً من العلم، ثم عاد إلى بلده وعكف على طلب العلم، ثم عاد إلى مكة عام ١٣٠٨هـ للحج ومرَّ على عددٍ من البلدان مثل حائل والقصيم، وأقام بها أياماً في ضيافة أهلها، ثم كثرت بعد ذلك رحلاته إلى دول الخليج، وقد اشتهر وذاع صيته، فكان أمراء البلدان يوجِّهون إليه الدعوات ليقوم بالتعليم والنصح والإرشاد والخطابة، فسافر إلى العراق، وترك بها أثراً طيباً وحيّاه شعراؤها وأشادوا به فقال قائلهم:

خَبِرْ متى صعد المنابر أطرقتُ عظماء أهل الأرض من إعظامه
تأبى العقول بأن زاخر علمه من كسبه وتقول من إلهامه

شهد العفأة وليله ونهاره بِصَلَاتِهِ وَصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ
ثم تابع رحلاته من العراق إلى الكويت، وقد بقي يتردد على العراق
وفاءً بعهدده لهم، وحرصاً على تلبية رغبتهم، ثم تزوج هناك وأقام مدة من
الزمن، فلما أن توفى الشيخ فالح السعدون، أحد رؤساء القبائل المشهورة
هناك وممن كان هذا المسافر في ضيافته، وبعد أن أحس الشيخ عبدالعزيز
بتغير الأحوال في العراق وانتشار المنكرات وفساد الأخلاق ترك العراق
على مضض وفي قلبه حسرة وبين جوانحه أسى، فكتب قصيدة في سفره
أرسلها إلى الشيخ غالب آل سعدون في البصرة عام ١٣٢٩هـ، يقول فيها:
أَجَلٌ إِنَّهَا أَيَّامُ تُرْضِي وَتُغْضِبُ وَأَوْنَةٌ تُقْصِي وَحِينًا تُقَرِّبُ
ويوماً لها ثغر من الأنس باسمٍ وأخرى بشحط البين تلوي وتجذبُ
وما المرء إلا من يُوطِّنُ نفسه على حالتها حين تُعْطِي وَتَسْلُبُ
فلا يزدهيه طيبُ عيشٍ لعلمه بأن الصفا فيها وإن راق يذهبُ
ولا يُعْظِمُ الحَظْبَ المُلِمَّ لهوله وثوقاً بلطفِ الله واللطفُ أقربُ
فيا غالبَ الأمجادِ في كلِّ مشهدٍ إذا حشدوا للمكرمات وألبوا
ويا مالكا رقي بحسنِ إخائه فمالي براحٍ عن هواه ومذهبُ
أتاني كتابٌ منك بالفضل شاهد كما أنه عن حُرقةِ البين مُعْرَبُ
لقد زاد قدري أن مثلك لي أخُ يحنُّ إلى قُرْبِي إليه ويرغبُ
لئن جرتِ الأقدارُ بالبُعدِ عنكمُ ومن بيننا حالتِ قفارٌ وسببُ
وظللتُ بحيثِ الكتبُ منكم عزيزة ولا مُخْبِرٌ عنكم يفيدُ ويعربُ
فعندي لك الشوقُ الشديدُ ولوعةٌ تُؤَوِّبُنِي ما لاحَ في الأفقِ كوكبُ

وذكركَ بالأنفاس يُقرَنُ مثَلُما
 فيا آلَ سَعْدُونِ بَقِيَّتُمْ لذي الدُّنَا
 غرامي بكم ذاك الغرامُ وَحُبُّكُمْ
 فما شاقني بعد الجزيرة منزلُ
 بلى غُرْبَةُ الإسلام يا صاح إنها
 وتدعو إلى هجر العراق وأهلِهِ
 ألا ترني أصبحت حيرانَ واجماً
 علاكُمْ وما عَوَّدْتُمْ من جميلِكُمْ
 وما قد فشا من مُنْكَرٍ وضلالةٍ
 ولا ملجأً كلاً ولا وَرْزَ سوى
 عسى نظرةً من جودِهِ والتفاتةً
 عسى نفحةً تُخَيِّي القلوبَ بروحِها
 فنلتزِمَ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ بجمْعِنا
 وذلك أسمى ما نودُ ونبتغي
 وأزكى صلاة الله ثم سلامُهُ

وهكذا استمر هذا الشيخ الداعية الشاعر المجاهد في رحلاته، فذهب
 إلى الكويت وأقام بها مدةً يخطب ويدرس ويعلم، وتخرج على يديه أناسٌ
 كثير، وسافر كذلك إلى دُبي وأقام بها مدةً للتعليم والتدريس في بعض
 مدارسها، ويقال إنه سافر إلى الهند مرتين، وقد وفد على الملك
 عبدالعزيز آل سعود واستضافه ورحب به وقد كان مثلاً في سماحة
 الخلق، وكرم النفس، وبسطة العلم، وكان يصحب معه في رحلاته عدداً

غفيراً من الناس للتعليم وينفق عليهم من ماله، ويذكر علماء الأحساء أنه عندما أحسنّ بدنو أجله قال: ما أسفتُ على شيء أسفي على علم بين جنبيّ لم أستطع أن أورثه غيري. توفي عام ١٣٥٩هـ بالأحساء، رحمه الله رحمة واسعة.

ولقد كان هذا الداعية المجاهد يتميز بشاعرية فذة ومعان جزلة، ونبرة صادقة في أشعاره، وقد أبدع في أغراض متعددة مثل الرسائل، والمدائح، والغزل، والزهديات، والرثاء، وغير ذلك، وإنك لتعجب لرجلٍ تقوم حياته كلها على السفر والرحلات والنضال، داعياً ومرشداً، وخطيباً وموجهاً، ثم تجد عنده من الإحساس بالجمال، والإعجاب بالحسن، والشعور بهمسات الحب والدقة في الوصف، وحسن التشبيه، ما يأخذ بالألباب ويهزُّ النفوس.

وتعال معي الآن بعد هذا الموجز اليسير عن هذا الشخصية العجيبة وهذا الرجل المتوقد الممتلئ حيوية ونشاطاً في زمن يكثر فيه الجهل والفقر والخمول، فكان مثلاً للهمة العالية.

تعال معي إلى الجانب الآخر من جوانب هذه الشخصية العجيبة، تعال معي إلى الشعر الرائع، والخيال الخصب، والكلمة المجنّحة، قال يعتذر إلى ابني عمه: الشيخ صالح، والشيخ أحمد ابني محمد بن عبد اللطيف آل مبارك:

متى عنّ لي من ذكر قوميّ سانحُ	فلا تسألاً ماذا تُلاقي الجوانحُ
وإن هبّ غربيّ النسيم فبرّدُه	له القلب مني قبل أنفي مُصافحُ
وإن ذكروا الأحساء فالقلبُ خافقُ	كما خفقت بالراحتين المراوحُ

لي الله من ذي لوعة متجلد
أخي فكرة تعادله أي خطر
إذا هاتف الأشواق نادى بلبه
وجاذب قمرى الحمام لحوته
وأجدر بمشتاق ألوف تقاذفت
هو البين فيه ذو العزا متهتك
خليلي ما صبري الغداة بمسعفي
فهل أحمد ابن العم عمي محمد
وهل عنده شوق كشوقي وهل به
وهل راعه البين المشت فدمعه
وهل هو مثلي كلما هاجه الأسى
أم البعد أنساه الرفاق وراقه
وهل صالح لا أبعد الله صالحاً
أمولى الموالى بحر جودك موردي
ويارب طال البعد بيني وبين من
فصلنا بمن نهواه بالسعد والهنا
وصل وسلم منعماً متفضلاً
وأصحابه سَم العدا أنجم الهدى
وقال في أبيات له يودّع بها محبيه في دبي بعد أن رحل عنهم يريد مكة
والمدينة:

حضر الأصحاب من كل فتى كامل الأخلاق للمجد كسب

ودَّعونَا والمآقي ذُرْفُ فركبنا صحوةً مع من ركب
قال لي الأصحاب لما ودَّعوا أبهذا الحال ترضى يا مُحِب
قلت فالعذر فلولا أنني قاصدٌ «طيبة» نفسي لم تطب
وإليك هذه القصيدة الرائعة لهذا الشاعر المبدع، وقد بدأها بمقدمة
غزلية من الغزل العفيف، وقد اخترت منها بعض أبياتها لأنها قصيدة
طويلة:

ذكرَ الرَّبْعَ وأهليه فأنا وغريبُ الدَّارِ يخلُّو بالأسَى
يا أخي يا عبدَ الرحمن يا يا سميري في الهوى إذا لافتي
قم فطارخني أحاديثَ الهوى أسفاهُ لشبابٍ ينقضني
طال ليلي في «أبي ظني» ولا أقصر الليلَ به مُقْتطفاً
من أقاح حوله الوردُ إلى فهو إنسانٌ وبُستانٌ وإن
إن رنا جرَّدَ سيفاً فاتكأ ويريني اللؤلؤَ الرطبَ كما
ويريني ما نضا البزُّعُ عن وإذا أُرْسِلَ جُثلاً واردةً
فإذا ما سعدنا ألفنا وشجاءُ البارِقُ السَّاري فحنَّنا
والعبابات إذا ما الليلُ جنَّنا مُنْجدي يا مُسْعِدِي حساً ومعنى
منك أولى بالوفا فيمن علمنا وازو لي أخبارَ عَفراءَ ولُبْنَى
عاطلاً من وصل ريثا القدُّ حسناً ظنِّي لي فيه يُضاهي البدرَ حُسناً
ثمرَ اللَّذاتِ من هنا وهناك نرجسٍ من فوق تُفَاحِ أَبْنَا
شَتَّ كان البدرَ والظَّنِّي الأَغْنَا أو تَشْتِي هَزَّ من عطفيه لَدْنَا
شَتَّ منظوماً متى يُضْحِكُ سَنَّا وجهه كيفَ تَبَدَّى الشَّمْسُ وَهَنًا
فوقَ مَتْنِيهِ أراني اللَّيْلَ مَثْنَى واطَّرَحْنَا العُتْبَ والإِعْتَابَ عَنَّا

وتجاذبنا حواشي سمر
أخذ الدلة من كائونها
وابترى سكب من ياقوتة
كلما أنعم بالكاس ملاً
وسعدنا وشقي حاسدنا
فإذا ما الشهب للغرب انتحت
وتغشاه الكرى وسدته
أمين العار والإثم فلا
يا لها أمانة لم تعدها
نفحة قدسية تسعدني
وترقي رتبة في العلم من
وسمو في العلا تصحبه
ولقا الأصحاب من كل فتى
ونكتفي بهذا القدر من أخبار هذ المسافر العملاق رحمه الله وغفر له
وأسكنه فسيح جناته .

«للمزيد راجع كتاب شعراء هجر لعبدالفتاح الحلو»